إضاءات على المثل الشعبي

في بعض مناحي الحياة الاجتماعية

obeikandl.com

obeikandl.com

المال والتجارة

اشتهرت دمشق بأسواقها وتجارتها على مر التاريخ، ولقد بلغ عدد تلك الأسواق في العهد العثماني مئة وخمسين سوقاً بين كبير وصغير. منها أسواق لبيع الأقمشة والأحذية والورق والكتب والسلاح والصاغة والصوف والنحاس والأزرار والسرج والقباقيب والخيل والبقر والغنم وسوق للخراطين وآخر للنحاسين.

ومن الأسواق المشهورة سوق مدحت باشا، أما سوق الحميدية الأكثر شهرة فلقد أنشئ في العهد العثماني أيام السلطان عبد الحميد، وهو أكبر الأسواق وأكثرها ازدهاراً.

ولقد عرفت المعاملات المالية والتجارية منذ القدم في الشام بسمعتها الجيدة غذَّاها صدق الكلمة والوفاء بالوعد الذي كان في وقت من الأوقات أوثق من العهود المكتوبة والعقود الموقعة.

واتسم التاجر في الشام بالحذاقة والذكاء، والميل إلى الربح في معظم الأوقات، بسبب الحصافة التجارية قيل: "**يامعلِّم يا رئيس قبل ما تفصِّل قيس**".

وقيل: "**يلي ما بيحسب ما بيسلم**".

كذلك عرف عن التاجر الدمشقي حفاظه على ذمته وشرفه وكلمته؛ قيل: "**وعد الحرّ دين** "، ولم يجرب عليه في الغالب أنه يعدل عن بيعة مهما كانت الخسائر، أو أنه يأكل مال الغير؛ بل على العكس كان يؤدي ما عليه ولو اضطر إلى بيع كل ما يملك ليخلص ذمته، فإن أفلس أحد التجار تداعى مجتمع التجار إلى إعانته على الوقوف على قدميه مرة أخرى؛ قيل: "**الصديق عند الضيق**".

هذا الزخم الأخلاقي التجاري والمالي عكسته الأمثال الشعبية في تفاصيل كثيرة يومية كانت ترجمة لهذا الواقع.

لم تأت هذه السمعة من فراغ، فقد وعى المتعاملون بالمال والتجارة قواعد الحياة وأسس السوق، فلم يكن يغيب مثلاً عن التاجر أنه حين يكفل آخر بأن هناك مخاطرة لابد أن يضعها في حسبانه، قيل: "**الكفيل حطاط**"؛ أي ربما يضطر إلى دفع الكفالة.

ومما عرف عن التجار الدمشقيين بأنهم لا يدخلون في صفقاتهم بكل ما يملكون، بل كانوا يدخرون جزءاً منه احتياطاً وتحسباً للظروف السيئة التي قد تفاجئهم، قيل: "**خود من التلّ بيختلّ**".

وقيل: "**وين ضاع الراسمال قال: بالمسواق**".

واشتهر التجار بالدخول في الصفقات المالية بثقة وثبات ودون تردد، وكما يقال: "**بقلب قوي**"، وهذا كان أدعى لنجاح الصفقة والربح بالمحصلة، قيل: "**دقّ الحديد وهوِّه حامي**"، وقيل: "**بيع واندم ولا تخلِّي وتندم**".

وما مكنهم من هذه الثقة إتقانهم لصنعتهم وتجارتهم وحرفيتهم فيها، قيل: "**ضربة المعلم بألف لو شلفها شلف**"، وقيل: "**عطي الخباز خبزو ولو أكل نصُّو**"، وقيل: "**مو كل مين صفّ الصواني صار حلواني**".

وحيث تميعت علاقات المال في وقتنا الحالي، وارتفعت القدسية عن الوفاء بالدين حتى أصبح الكثيرون يعتبرون الدَّين بحكم المال الذي لن يعود أبداً قيل: "**دينو بينبسط طالبو بيزعل**"، فإن هذه العلاقات كانت أكثر انضباطاً في السابق، فالدَّين لابد من وفائه قيل: "**من أخذ وردّ ما ارتدّ، شارك الناس بأموالها**"، ولقد عكست الأمثال الشعبية أهمية الدَّين وخطورة التراخي في سداده حفاظاً على حقوق العباد قيل: "**يلِّي بيتجوز بالدين بيجو ولادو بالفايز**" (الفايز هنا يقصد به فائدة البنك والقروض).

ولقد فصل المتعاملون بالمال بين الكرم وبين أداء الحقوق، فأداء الحق شيء والكرم شيء آخر، قيل: "**حاسب بالقرش وبقشش بالقنطار**"، ولقد كان الوضوح بالعلاقة التجارية والمالية أساساً لها وأدعم لأواصرها، قيل: "**يلي أولو**

شرط آخرو نور"، وقيل: "**كل شي بأوَّلو يا مهونو**"، وقيل: "**ألف شرط هون و لا خناقة على البيدر**".

لسنا طبعاً بصدد التكلم على مجتمع أفلاطوني خلا من السلبيات أو أكل مال الغير أو الاتكال و التواكل أو البطالة أو الكذب والغش، ويمكننا أن نجد الكثير من الأمثال التي عكست تلك الحالات وأشارت إليها وانتقدتها، بل سخرت منها أحياناً، لكن الغالبية العظمى كانت تنحو تجاه العدل والحفاظ على حقوق العباد والصدق في التعامل المالي.

لقد قدر التجار في الشام الأمور المالية بمقاديرها، وكانوا وقافين على مواردهم المالية والبشرية، وعلى إحاطة كاملة بما يستطيعون وما لا يستطيعون الدخول فيه من الصفقات، قيل: "**يلّي بدُّو يعمل جمَّال بدُّو يعلّي باب دارو**"، وقيل: "**على قد بساطك مدّ رجليك**".

ولم تحظ المصارف على قلتها في الماضي بثقة التاجر الدمشقي وأصحاب المال، بل اعتقدوا اعتقاداً راسخاً ببركة المال النقدي الجاري "**الشندي**" الذي يقع تحت السيطرة المباشرة، قيل: "**إذا داقت عليك المخازن مخزنك عبّك**"، وقيل: "**خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود**"، وقيل: "**لا تصرف مالك كلو بكرا بتقاقي ما بتلاقي**"، وكان للمال النقدي قوة شرائية عالية مقارنة بالشراء بالتقسيط أو بالدين، قيل: "**الكاشاني نوال**"، والهدف البيع بالكاش وعدم الدين، وقيل: "**الكاش نهَّاش**"، أي إن الصفقة تنجح وتكون أربح عندما يكون المال النقدي حاضراً في البيع والشراء، قيل: "**المال بيجيب المال والقمل بيجيب الصيبان**" (الصيبان هي بيوض القمل).

لم تكن ثقافة استثمار المال في العقارات رائجة في الماضي أو أمراً وارداً كما هو عليه الآن بعد الانفجار السكاني في دمشق، بل كان يخضع لمبدأ العرض والطلب، ومع ذلك فقد عُدَّ شراء العقار أو الأرض نوعاً من أنواع الادخار الصامت للمال، قيل: "**العقار ابنك البارّ**"؛ أي تجده عند الحاجة، وقيل: " **أول بيت بيعو والثاني أجرو والتالت سكون فيه**".

ومما تميز به التاجر الدمشقي اطلاعه الواسع والدقيق على خفايا نفس الشاري والزبون، فكان يعرف تماماً ماذا يقول وكيف يقوله ومتى، كي يقنعه بالبضاعة، وهذا الأمر أُخذ على أهل دمشق في الغالب حيث تجاوزت قدرتهم على الإقناع حدود التجارة إلى كل مناحي الحياة، فانتُقد لسانهم الطافي ووصفوا بالزئبقية، قيل: "**ما اعدمتك يالساني كيف ما درتك بتندار**"، وقيل: "**ميلي ما مال الهوا**"، وقيل: "**متل الزبدية الصيني منِّين ما نقرتو بيرنّ**"، وقيل: "**مسبِّع الكارات**".

أما صفة الحرص التي اشتهر بها التجار الدمشقيون فقد وصفت من قبل الآخرين بالبخل، وهو اتهام غير دقيق، فالتاجر حريص يحتاط للمستقبل وهو أدعى للنجاح بالتجارة وعالم المال، قيل: "**خبِّي قرشك الأبيض ليومك الأسود**". لكن في وقتنا الحالي ينتفي هذا المنطق وتنهزم هذه الثقافة في مواجهة تحديات العصر الذي يتطلب تعدداً في المهارات وتعدد العلوم التي يجب أن يحملها الشخص، وكل ذلك يحتاج إلى المال، فالمال يعدل المهارة والعلم، ولم يعد هناك من داع إلى منطق الادخار؛ إذ إن أي مهارة أو علم سيجلبان المال وسيغنيان عن الحرص عليه.

وقد اكتسب التاجر الدمشقي في السابق مهارته في التجارة والسوق بالتدرب منذ الصغر، قيل: "**فرخ البط عوَّام**"، وقيل: "**الديك الفصيح من البيضة بصيح**" وبالتعلم المباشر من الأب حيث كانت المهن الصناعية والتجارة بشكل عام تؤخذ أباً عن جدّ، قيل: "**المَّارس غلب الفارس**"، فإن التجارة والمال والشركات في عصرنا الحالي تحتاج إلى أكثر من الممارسة والتقليد، فباتت تعتمد على علوم أساسية تدرس في الجامعات والمعاهد، مثل علم الإدارة والموارد البشرية والتسويق والدعاية وغيرها.

ولم تبتعد ثقافة الحسد والحظ والعين وتأثيرها عن تجار دمشق؛ بل كانوا يعتقدون بها ويستجيرون من العين، قيل: "**لا تشتري حمارة وصاحبها بالحارة**"، وقيل: "**صيبو وقول نصيبو**"، لكن كان هناك عند البعض الآخر وعي علمي للتجارة بعيداً عن الحظ والحسد، قيل: "**تاجر ومنجِّم ما بيجتمعو**".

ولم تدع الأمثال شيئاً إلا وصفته في عالم التجارة، فوصفت السوق مثلاً في ذروته فقيل: "**سوق نار وشرّا حمار**"، وهذا فيه إساءة للزبون، فإن كان متدنياً في البيع والشراء وصف بأنه: "**متل الميّ بطلوع**"، أما إن كانت البضائع غالية الثمن فيقال عن الأسعار أنها "**نار وكوه**" (كوة أي تكوي كالنار).

المال في تفاصيل الحياة

لم تقتصر ثقافة المال على التجار، بل تجاوزتها إلى طبقات المجتمع كافة، فكان تداول الأمثال المتعلقة بالمال منتشراً في الحياة اليومية وحتى بعيداً عن السوق والمال. قيل: "**حيل المفلس على المفلس ترى العجب**"، أو وصف قليل المال فقيل: "**الجمل بقرش وقرش ما في**"، وقيل: "**الله يكون بعون يلّي ما عندو شي يبيعو**"، أو: "**السكافي حافي والحايك عريان**"، أو قيل: "**وجع الدرس ولا وجع الفلس**" (الدرس أي الضرس).

ولقد انتقد المجتمع بشكل عام الرجل الذي لا يعمل؛ لأن المجتمع آمن بأن في "**الحركة بركة**"، ولا يأتي الرزق دون سعي، وقد قيل: "**من غيَّر كارو نقص مقدارو**" (الكار هو المهنة)، وانتُقد العاطل عن العمل فقيل: "**عم يسنِّد حيطان**"، فإن تذرع شخص ما بقلة الرزق قيل: "**يلي بنطّ بالشام بنطّ بحلب**".

ومع أن المجتمع آمن بأهمية المال وعدله بالروح أحياناً قيل: "**يلي بياخد مالك خود روحو**"، إلا أنه لم يغب عنه أن يحذر منه، فكم من إخوة فرقهم المال، قيل: "**الوراثة حراثة**" (أي الورث مثل حراثة الأرض قد تذهب بالود وتقضي على العلاقات)، تدليلاً على أن المال - وبالأخص الإرث - يفرق الإخوة أحياناً، وقيل: "**هين فلوسك ولا تهين نفوسك**"، وقيل: "**ذلّ مالك ذلّ ما لك، عزّ مالك عزّ ما لك**"، رفعاً من شأن النفس مقارنة بالمال.

ولقد بدا التذمر في بعض الأمثال وفي الوصف الشعبي عندما كان العمل يستغرق من الكادح معظم النهار، وبالأخص البسطاء من الناس، فقيل: "**منركض منركض والعشا خبيز**" (الخبيزة هي أرخص أنواع الأعشاب التي

تؤكل)، أو: "**بيشتغل من الفجر للنجر**"، أو: "**بيشتغل متل الحمير الطرَّابة**"، وقيل: "**كرة السلُّم حملانو**" (كرة أي أجرة السلم حمله).

حصافة التاجر الدمشقي

لقد عرف تاجر دمشق بالحصافة والحرص، فهو مثلاً يدخر جزءاً من رأس المال تحسباً للمستقبل، قيل: "**ساقية جارية ولا نهر مقطوع**"، أو قيل: "**بحصة بتسند جرة**"، ووصفت حنكته فقيل: "**عصفور باليد خير من عشرة على الشجرة**"، وتفننت الأمثال في وصف تجارته ونباهته وذكائه، ففي سعة التجارة قيل: "**بتلاقي عندو من البابوش للطربوش**"، وفي المنافسة بين التجار قيل: "**على هامان يافرعون**"، أو: "**كلَّاس ما بِغبر على طحان**"، أو: "**بدّو يعرج بحارة المكرسحين**" (المكرسح هو المقعد من الناس)، أما في تحري الرزق أينما وجد فقيل: "**مطرح ما بترزق إلزق**"، فقد عُدَّ أيضاً من شروط الرزق استمرار الحضور في المحل التجاري، قيل: "**الدكان بدها رجل مكسورة**"، أما في حصافته وذكائه فقيل: "**ماحدا بيشتري سمك بالمي**"، أو قيل: "**شريك الميّ ما بيخسر**" (لأنها رأس مال رخيص وهي تقاس على أشياء أخرى)، أو: "**بيلعب بالمقصوص ليجي الطيَّار**" (هذا المثل خاص بالحميماتية ومن يعملون بكش وتربية الحمام)، وقيل: "**درهم مال بدُّو قنطار عقل**".

ووصفت الصفقة الجيدة بالقول: "**لو صحِّت لجدِّي ما مات**".

كذلك نجد أن التاجر الشامي خبر أطباع الناس فقيل: "**الناس معادن**"، أو: "**على المحكّ ببيِّن معدنو**".

أما البضاعة؛ فإن كانت جيدة وصفت بـ "**الغالي حقُّو معو**"، أو: "**كلَّفت بقرة جحا**".

أما الغني من التجار فوصف "**بالمرمّق** "، أو: "**عضمو ذهب**"، أو: "**يلِّي معو برش على المخلوطة**" (المخلوطة هي المكسّرات من فستق ولوز وكاجو مع البزر والقضامة مخلوطة بعضها مع بعض)، أو يقال: "**من مالو يحلالو**".

أما التاجر الحاذق في أمر ما فوصف بأنه: "**مقلِّع دراسو**" (دراسو أي أضراسه)، أو: "**بيلقطها على الطاير**"، أو: "**بيصيب عصفورين بحجر واحد**"، وقيل عنه: "**حربوق**"، و: "**ابن سوق**"، و: "**تاجر مرّ**"، و: "**عتيق وقدّ حالو**"، و: "**بتخلالو بلد**".

التاجر غير المخضرم

أما التاجر غير المخضرم فوصف بأوصاف كثيرة، فقيل عنه: "**غشيم**"، أو: "**بغو**"، أو: "**على نيَّاتو**"، أو: "**ابن مبارح واليوم**"، وربما كان محط سخرية، فإذا افتتح دكاناً قيل: "**صار للدبَّانة دكَّانة وصارت تسكِّر على بكِّير**"، فإن خسر في تجارة قيل: "**طلع متل صبَيّ الحمام إيد من ورا وإيد من قدام**"، أو قيل: "**رجع بخفَّي حنين**"، أو: "**حساب القرايا ما طبق على حساب السرايا**".

وفي حال ربح تجارة ما فيكون ذلك مصادفة قيل: "**لبين ما يفكِّر الفهيم بكون الغشيم باع**"، فإن أساء إدارة تجارته قيل: "**يلِّي بتوفرو السَّمرا بتحطُّو خطوط وحمرا**"، وإذا أدرك خسارته قيل فيه: "**راحت السَّكرة وإجت الفكرة**".

قواعد التجارة العامة

دخل المثل الشعبي في عمق التعامل التجاري، ووضع وأرسى قواعد عكست واقع التجارة وتداول المال، فحين كان التاجر ينتظر ربح صفقة أو تجارة كان يقال: "**لاتقول فول ليصير بالمكيول**"، أو: "**لا تقول عنب ليصير بالسلة**"، أو: "**يا ترى قمحة ولا شعيرة**".

وفي قواعد التجارة العامة قيل: "**المال الداشر بيعلِّم الحرامي السرقة**"، وقيل: "**الغرض العيرة موكَّل عليه إبليس**"، وفي أهمية تسجيل البيع والشراء والدين والأقساط قيل: "**سجِّل القرش لو كلفك تسجيلو ليرة**"، وفي أخذ العبرة

من الآخرين قيل: "**ما متنا بس شفنا غيرنا يلِّي مات**"، أو: "**يلِّي بيتعلم من كيسو بيفضى**".

السيئون من التجار

لم يغفل المثل الشعبي عن السيئين من التجار؛ ففضحهم ووصفهم، فقيل فيمن يكيد للآخرين من التجار: "**من حفر حفرة لأخيه وقع فيها**"، ووصف التاجر السيئ والمخادع والمراوغ بأوصاف مثل: "**مطيلس**"، أو"**مسلبط**"، أو: "**بلهموتي**"، أو: "**متلبس**"، أو: "**مكولك**".

فإن رجع في بيعة أو كلمة قيل: "**كلام الليل يمحوه النهار**"، أو: "**على الوعد يا كمُّون**"، أو: "**على المشمش**"، أو: "**بيبزق البزقة وبيلحسها**"، فإن كان موارياً ويظهر غير ما يبطن ويحيِّر من يتعامل معه قيل: "**عيني فيه وتفو عليه**"، أو قيل: "**إذا بدك تحيّرو خيّرو**"، أو قيل: "**صحيح لا تقسم ومقسوم لا تاكل وكول لتشبع**"، فإن أراد أن يخرب على جاره بيعة جعل بضاعته: "**سكِّة عطل**"، أي جعل فيها كل النواقص والعيوب، وإن كان مدعياً ويتظاهر بغير ما هو عليه: "**قالوا للجمل شو شغلتك؟ قال: طرَّاز، قالولو: باين عليك وعلى قوالبك**"، ووصف ماله فقيل: "**مال الخسيس بروح فطيس**"، فإن وضع طعماً لزبون ليكسب مالاً أكثر قيل: "**عاملو بقرة حلَّابة**"، فإن جاد على غيره من التجار شُكِّك بنيته وقيل: "**لو فيه خير ما رماه الطير**"، فإن حاول أن يكفل أحداً ما قيل: "**عصفور كفل زرزور طلعو التنين طيارين**" (التنين أي الاثنين)، أو "**من دهنو سقِّيلو**"، أما كلامه فوصف بأنه "**لا بينزل بميزان ولا بقبَّان**"، فإن كان ممن يكثر من الكلام قيل: "**خدني إجيتك وإجيتك خدني**"، أو: "**خود صدّ وعطي ردّ**"، وأما بضاعته السيئة فوصفت بـ "**لقوي تشدّ إيدك**"، أو قيل: "**شغل هات إيدك والحقني**"، أو: "**شغل بازاري**"، أو: "**شغل من قفا الإيد**"، أو: "**أعلى جنس واطي**"، أو: "**ما بيلقى اللولحة**"، أو: "**بضاعة حشت نشت**"، أو: "**مسكَّج سكاجة**"، أو: "**ما بيلقى الوتكة**".

المناخ والفصول

إن الحكمة الإنسانية والتواصل الإنساني والخبرات التراكمية تتجلى أكثر ما تتجلى في البيئة الزراعية التي تهتم بتغيرات المناخ وتبدلاته، وهي تتجلى بالمنطقة العربية التي تعتمد على الزراعة مصدراً للحياة والرزق، لذلك فإن ارتباط الذاكرة الجماعية بالحكم والأمثال والأقوال وغيرها فيما يتعلق بالمناخ قد يكون له أثر إيجابي على بقاء هذه الشعوب ونمائها واستمرارها. ويمكن تقسيم الأمثال التي تتعلق بالمناخ وتقلبات الجو عدة أقسام:

١- تناولت بعض الأمثال شهور السنة، فقد قيل: "**أيَّار بشارك الضمَّان**" (الضمَّان الذي يضمن محصول الأشجار حيث يكثر الهواء وسرعته في هذا الشهر ولذلك فمن الممكن أن يقضي على محصول الأشجار إن ازدادت سرعته عن حد معين)، وقيل: "**بين تشرين أول وتشرين ثاني صيف ثاني**"، وقيل: "**آب اللهاب**"، وقيل: "**في تموز بتغلي المي بالكوز**"، وقيل: "**ايلول دنبو مبلول**" (أي يكثر فيه المطر)، وقيل: "**شباط بشبِّط وبلبِّط وما عليه رباط**" (أي قد تمطر وتشرق الشمس في اليوم نفسه)، وقيل: "**مطرة نيسان بتحيي قلب الإنسان**"، وقيل: "**خبِّي فحماتك الكبار لعمَّك آدار**" (من شدة البرد)، وقيل: "**عقارب نيسان**" (شبهت لسعة البرد في نيسان بلسعة العقرب).

٢- خصت بعض الأمثال الأماكن بالذكر، فقيل مثلاً: "**بين قارة والنَّبك بنات البُكَّر تبكي**" (إشارة إلى شدة البرد وقارة هي منطقة في سورية شديدة البرد، وبنات البكر أي اللاتي لم يتزوجن بعد)، أو وصفت البيوت التي لا ترى الشمس إلا قليلاً فقيل فيها: "**بالصيف حريق وبالشتا غريق**".

٣- وصفت أمثال أخرى الانقلاب الشتوي والصيفي، وقسمت أوقات الشتاء إلى مربعانية وخمسينية، حتى إنها ربطت كثرة الموت بالبرد، فقيل: "**المربعانية بتقشّ**" (أي يكثر فيها الموت)، ومن التقسيمات المناخية التي ذكرت في الأمثال

السعودات، ولكل سعد كان هناك صفة، وهو يمتد اثني عشر يوماً ونصف يوم، وهي أربعة سعودات؛ الأول: **سعد الدابح** قيل فيه: "**ما بضل كلب نابح**" (من كثرة البرد)، والثاني: **سعد سعود** قيل عنه: "**بتدق المي بالعود بيبرد كل دفيان وبيدفا كل مبرود**"، والثالث: **سعد بلع** فقيل فيه: "**السماء بتمطر والأرض بتبلع**" إشارة إلى كثرة الأمطار فيه، والرابع: **سعد الخبايا** فقيل: "**تتمشَّى فيه الصبايا**" والصبايا هنا هي الحشرات؛ أي في الربيع تبدأ الحشرات بالتوالد والانتشار والخروج من مخابئها.

٤- مجموعة أخرى من الأمثال ربطت المناخ والبرد ببعض المناسبات الدينية فقيل مثلاً: "**طول ما المسيحي صايم البرد قايم**"، أي عندما ينتهي المسيحيون من صيامهم ويحتفلون بعيد الفصح ينتهي البرد.

٥- كذلك ربطت الأمثال المناخ بمناسبات اجتماعية أو وعظية مثل قولهم: "**بكرة بدوب التلج وبان المرج**"، بمعنى أن المستقبل سيظهر صدق الإنسان أو كذبه، أو قيل مثلاً: "**ليش يا شعبان ما بتجي بعد رمضان، قال: كل شي بوقته حلو أو كل شي إلو أوان**"، والذي لا يعجبه شيء قيل فيه: "**لا بيعجبو العجب ولا الصيام برجب**"،، أو قيل: "**كل أوان ما بيستحي من أوانه**"، وشبه من يخلط بين شيئين بالشهور بالقول: "**لا تخلط شعبان برمضان**". كذلك كانت بعض الأمثال صادقة في وصفها للمناخ وكيفية تجنب البرد، فقيل بالخمسينية: "**دروة ولا فروة**" (حيث إن البرد والهواء الشديد يكون خارج المنزل وتبدأ المنازل بالدفء من الداخل، فاتقاء الخروج هو خير طريقة للدفء)، كذلك وصف البرد بكثير من الأوصاف فقيل: "**برد بقصّ البسمار**"، وقد شبه من يحجب الرؤية عن الآخر "**بغيمة شباط**"، ولم يفت الناس أن تقسم أنواع الثلوج، كقولهم: "**أول تلجة سمّ والتانية دمّ والتالتة كول ولا تهتم**"، وتندرت الأمثال بوصف البرد والدفء فقيل: "**الدفا عفا والبرد جفا**". كذلك ربطت بين بعض الأمراض وبعض الفصول في الأمثال فقيل: "**رشح الصيف أحد من السيف**".

لماذا انحسرت؟

لقد توارث آباؤنا هذه المقولات التي يمكن أن نشبهها في يومنا هذا بالأرصاد الجوية، فقد كانت تحكم العلاقة بين الناس على العموم، والفلاحين والمزارعين على الخصوص، الذين لهم علاقة بالأرض والمحاصيل وتبدلات المناخ حتى الكارثية منها.

طبعاً هذه المقولات بدأت تخبو في وقتنا الحالي لأن اعتمادنا بات أكثر على الأرصاد والقراءة الجوية عن طريق الأقمار الصناعية ووجود التكنولوجية التي يمكن أن تخبرنا عن حالة الجو سلفاً.

لكن هناك عاملين آخرين ربما ساهما في قلة تداول الناس لهذه الأقوال:

العامل الأول: هو تبدل المجتمع من أعظمية زراعية إلى قلة زراعية وكثرة مدنية، فقد تحول المجتمع إلى مكان تكثر فيه الخدمات والتجارة، ومن ثم انحسرت الزراعة، ما قلل الاهتمام بهذه المقولات.

الثاني: نقطة خلاف قد تكون موضع نقاش بين المثقفين، وهي أن المناخ ربما كان أكثر ثباتاً في القرون الماضية ما سهَّل على الناس تبادل هذه المقولات وكأنها حقيقة ثابتة يندر فيها التبدلات الكارثية وتكثر فيها الأيام الاعتيادية، لكن انحسرت هذه المقولات مع التغيرات المناخية العالمية وما يسمى بظاهرة الدفيئة، وارتفاع الحرارة على سطح الكوكب، وذوبان الجليد في القطب الشمالي، والتلوث البيئي والتصحر، وارتفاع درجة حرارة المياه، وقطع الأشجار وانحسار الغابات، وغير ذلك من العوامل البيئية التي أثرت في المناخ تأثيراً أصبحنا نلمس عواقبه في العقد الأخير، حتى إنه حدثت بعض التظاهرات المناخية غير المعهودة مثل سقوط الثلوج في أماكن لا يذكر التاريخ حدوث مثل هذا الأمر فيها، وسقوط الأمطار في أماكن معروفة بالجفاف، وحدوث فيضانات في أماكن الجفاف.

كيف نشأت هذه الأمثال؟

تعتمد الأمثال المتعلقة بالمناخ والأحوال الجوية في الغالب على المراقبة الشخصية لشعب من الشعوب في منطقة جغرافية ما، وفي معظم الأحيان ترقى هذه الملاحظة والمراقبة إلى ما يقدمه العلم عن الجو لتلك المنطقة، وإن بقاء هذه الأمثال عبر الزمان لأكبر دليل على صحة معظمها؛ إذ إن تعاقب التجارب عليها أكسبها نوعاً من الحتمية والتنبؤ المصيب، وبذلك باتت مرجعية حقيقية تتعامل معها الشعوب وكأنها نشرة جوية وردت عبر الأقمار الصناعية لا يرقى إليها الشك.

إن التبدلات المناخية التي يشهدها الإنسان الحالي قللت من مصداقية هذه الأمثال وحولتها من ثم من أقوال مأثورة متداولة بين الناس تنبئ نوعاً ما بما سيؤول إليه الجو، وكنوع من الحكمة التراكمية، إلى أقوال باتت أشبه بمتحف تاريخي توضع فيه للاستئناس البشري أكثر منها للمعرفة.

obeikandl.com

الطعام في الأمثال

"قل لي ماذا تأكل أقل لك من أنت" ربما تهكم قائل هذه الجملة بربطه تعريف الشخص من خلال ما يأكله، لكن سواء كان مازحاً أم جاداً فقد أصاب الحقيقة في قوله، فعندما نتكلم على المجتمعات الإنسانية فنحن لدينا القدرة على استكشاف أي مجتمع منها من خلال طعامه ونوعه وكيفية تحضيره وإعداده، وحتى من خلال معرفة من الذي يأكل أولاً من أفراد العائلة، إنه ليس مجرد طعام بل هو لغة تواصل غنية وواضحة.

لا مبالغة فيما قلناه، فمثلاً تجد في المجتمعات الغنية والقادرة اقتصادياً كثرة اللحوم وقلة الخضراوات على موائدها، وهذا يعكس تماماً وضعها الاقتصادي، في حين أننا نجد أن المجتمعات الأقل حظاً اقتصادياً يكثر في طعامها الخضراوات بأنواعها، والمعجنات وتتنوع الوصفات الطعامية وتقل اللحوم بها.

قيل: "**إذا انفقد الضاني عليك بالحمصاني**" (أي تناول البقول كالعدس والفول والحمص وغيرها بدل اللحوم في حال فقدانها بسبب غلاء ثمنها).

كذلك فإن البعد الديني تراه حاضراً في ثقافة الطعام في المجتمعات المختلفة، فالكحول مثلاً يحضر في موائد الدول الغربية لكنه يختفي في المجتمعات الشرقية، كذلك الأمر بالنسبة إلى لحم الخنزير.

ونرى من جهة أخرى أن الدعاء أو الصلاة الكلامية قبل تناول الطعام توجد في معظم المجتمعات على اختلاف خلفياتها الدينية.

ويحضر البعد الصحي بشدة في ثقافة المجتمعات الطعامية، فترى الأمثال الشعبية تفضل نوعاً من الخضراوات على آخر، كذلك نجد أن العادات الاجتماعية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمواعيد الطعام والوجبات؛ ففي الشرق تنقسم

الوجبات إلى فطور وغداء وعشاء، وتكون الوجبة الرئيسة والدسمة على الغداء، لكن في المجتمعات الغربية تكون الوجبة الدسمة والرئيسة على العشاء، كذلك نجد اختلاف حجم الوجبات من مجتمع إلى آخر؛ فالمجتمع الشرقي يتميز بكثرة ووفرة الطعام على المائدة في حين أننا نجد أن الوجبات في المجتمعات الغربية محددة بعدد الحضور على الطاولة.

إذا عدنا إلى التركيز على المجتمع الشامي القديم نجد أن الطعام يأخذ حيزاً واسعاً من ثقافته ووقته واهتمامه، فالمرأة الشامية تقضي معظم وقتها في المطبخ لإعداد الطعام للعائلة، أما بالنسبة إلى الرجل فالطعام هو عنوان عريض لكرمه وشهامته وسعة رزقه.

ولقد انعكست طرافة أهل الشام على أسماء بعض الأكلات المحلية المعروفة، فهناك:

أكلة "**ستي ازبئي**"، وأكلة "**حرَّا اصبعو**"، وأكلة "**باشا وعساكرو**"، وأكلة "**داوود باشا**"، وأكلة "**إمام بايلضي**"، وأكلة "**شيخ المحشي**"، وأكلة "**شش برك**"، وأكلة "**بالوظة**"، وأكلة "**أبو شلهوب**"، وأكلة "**كول واشكور**"، وأكلة "**جظ مظ**"، وأكلة "**زنود البنات**"، وأكلة "**يهودي مسافر**"، وأكلة "**المكمور**"، وغيرها من الأكلات ذات الأسماء الطريفة ولا مجال لذكرها كلها.

ولقد وصفت الأمثال الشامية الطعام من زوايا مختلفة، فمنها ما كان يتعلق بالعادات الصحية الخاصة بالطعام والشراب، وهي تكاد تكون حكماً رائعة، وقد وصف من زاوية أخرى الطعام وآكلوه. ودخل الطعام وملحقاته في توصيف حالات اجتماعية أخرى لا علاقة لها بالطعام ذاته، وسنأتي على ذكر ذلك مفصلاً.

العادات الصحية في الأمثال

ارتبطت الأمثال الشعبية وما اعتاد الناس على تداوله في كلامهم اليومي بعادات ونصائح صحية بينت أهمية الطعام وأنواعه للصحة.

فالتُّخمَة على سبيل المثال أو الإكثار من الطعام في الوجبة الواحدة، استنكرته الأقوال الشعبية، وحثت على الابتعاد عنه، فكان يقال مثلاً: "**إذا الأكل إلك بطنك مو إلك**"، أو قيل في استنكار أكل الطعام كله: "**كلو رزقتكم قامت القيامة**"، أو: "**أكل الأكل حطَّة شيلة**" (أي دفعة واحدة)، أو: "**عديم ووقع بسلة تين**".

ومع ما نعانيه في وقتنا الحالي من مواد تضاف إلى الخضراوات والفواكه من مبيدات ومن تخصيب صناعي مضر بالصحة، نجد أن البيت الشامي اهتم بزراعة أنواع مختلفة من الفواكه والخضراوات في صحن المنزل المسمى "**بالديار**"، فكانت هناك أشجار الكباد والبرتقال والليمون والمشمش وغيرها من المزروعات، وكانت العائلة الشامية تأكل من هذه المزروعات طوال العام، وترى أنها صحية ومفيدة للجسم، قيل: "**فاكهة الديار بتطوِّل العمار**".

ووصفت بعض الأمثال العادات الصحية المفيدة التي تعقب وجبات الطعام فقيل:

"**تغدَّا وتمدَّا وتعشَّى وتمشَّى**"، وقيل: "**نوم العصور كسور**" (أي النوم في وقت العصر غير مستحب).

فإن كان هناك ضعف في الشهية بسبب مرض أو غيره قيل: "**الإيدين مفاتيح التم**".

وبينت بعض الأمثال فوائد بعض الأطعمة والأشربة، فقيل مثلاً: "**كول زيت وعارك الحيط**"، وطبعاً المقصود بالزيت هنا هو زيت الزيتون، فلم يكن في ذلك الوقت قد انتشر استعمال زيت الذرة وغيره من الزيوت النباتية، قيل مثلاً أيضاً: "**البرغل مسامير الركب**" في الدلالة على أهمية البرغل أو القمح بشكل عام، فالخبز أيضاً المصنوع من القمح ذكر في المثل الشعبي فقيل: "**الخبزالحاف بعرِّض الكتاف**"، وأتت بعض الأمثال تتنادر بأهمية الشاي، لكن حددت له الموعد المناسب فقيل: "**الشاي على الجوع متل الضربة على**

الكوع"، أي غالباً يكون شرب الشاي بعد وجبة دسمة وليس قبلها، فالمثل بشكل عام حض على العادات الحسنة، وبين أهمية بعض أنواع الطعام أو الشراب أو حتى النوم؛ قيل: "**النفس إن جاعت بشو ما كان قوِّتها وساعة النوم لا تفوِّتها**".

وصف الطعام وآكليه

حظي الطعام وآكلوه بطيف واسع من الأمثال التي تصفه، فإن كانت المائدة عامرة بالطعام قيل إن فيها: "**أشكال ألوان يا ريَّان**"، أو قيل فيها: "**على كل درس لون**" (الدرس هو الضرس، واللون المقصود به النوع من الطعام هنا).

كذلك وصفت الأمثال بعض الأطعمة وأثرها في الجسم فقيل مثلاً: "**كول مجدَّرة وعبِّي الطنجرة وكول كبب وعبِّي القرب وكول أبوات ودير القنوات**"، حيث تدرج المثل في طلب الجسم للماء بعد كل نوع من أنواع هذه الأطعمة.

وأطلقت الأقوال الشعبية على نصيب الشخص من الطعام بـ "**خرج ناشف**"، ثم استفاضت الأمثال بوصف الأشخاص وعلاقتهم بالطعام، فالشخص المحب للطعام بأنواعه قيل عنه: "**ما في شي بتمُّو مرّ**"، أو: "**سكينتو مطابخية**"، أو: "**عم تاكل عنك وعن أمواتك**"، أو: "**ماحدا لاحقك بعصاية**".

كما ربطت الأمثال بين شكل الرجل والطعام؛ فكثرة الرزق والخير تعني كثرة الطعام، وهذا يعني ظهور "**الكرش**"، أو البطن الكبير على رجل العائلة، وكان يسمى "**كرش الوجاهة**"، فهو إذن عنوان للضيافة والخير والسعة والكرم، وقيل أيضاً:

"**الرجَّال بلا كرش متل البيت بلا عفش**" (العفش هو أثاث المنزل).

أما المرأة فأخذت نصيبها من الوصف، وبالأخص إذا كان جسمها غير متناسق، فقيل عنها: "**متل قطرميز مصر لا عنق ولاخصر**"، فإن كانت لا تعرف الطبخ وغير ماهرة فيه قيل: "**شو ما طبخت العمشا جوزها بيتعشَّى**".

كذلك وصفت الأمثال بعض أنواع الطعام بأوصاف تهكمية، فسمت المشروبات الكحولية مثلاً "**بالزهرمان البخاري**"، وكأنها تشير إلى أنه سم يضر بالجسم. وهذا نوع من التهكم المضحك في موضوع الطعام والشراب، ومثلها عندما يقدم الشاي للضيوف فيقال لتشجيعهم على الشرب والضيافة: "**من تنَّا دخل الجنة**"، أي من شرب كأس شاي ثانياً يدخل الجنة، فكان يرد عليه بالقول: "**من تلَّت فلَّت**" أي إذا شربت كأساً ثالثاً فغالباً سيؤدي إلى امتلاء المثانة بالبول وسيحرض عليه.

وصف حالات اجتماعية مختلفة

لقد انتشرت ثقافة الطعام إلى مجالات أخرى من الحياة الاجتماعية، واستعين بوصف تلك الحالات إما بأنواع من الطعام أو الخضراوات أو البقول أو غيرها، قيل مثلاً: "**يلِّي بيعرف بيعرف ويلِّي ما بيعرف بقول كف عدس**".

وفي حالات الخوف والذعر قيل: "**ما بقي بقلبو ولا رزِّة**".

أما عندما يقدم الشخص على تجاوز كرامته الشخصية ليصالح شخصاً آخر فيقال: "**كسر على أنفو بصلة**" (أنفو أي أنفه).

وفي انقطاع الأمل من تغيير حال شخص ما يقال: "**طول عمرك يا تينة مجعلكة**" (مجعلكة أي متجعدة).

أما في مدح الذات فقيل: "**ما حدا بقول على زيتو عكر**"، فإذا تعددت الآراء بخصوص أمر ما اجتماعي قيل فيه: "**كتر الأيادي بينزع الطبخة**".

ووصف المثل الشخص المدعي والذي لم يستطع فعل أمر ما وأشار بإصبع الاتهام إلى مسببات أخرى: "**ماطال العنب قال عنو حصرم**".

وقيل في التنصل من العمل: "**يلِّي عندو عشِّي ما بزفر إيديه**" (العشِّي هو الطبَّاخ).

وأما صاحب الرأي الصائب فقيل له: " **ما عم تفتّ برّات الصحن**".

أما الذي يتسبب بالضرر فيقال له: "**إنت جبت الدبّ لكرمك**"، والكرم هنا هو حقل العنب.

وفي حال غضب شخص من شخص آخر وأضمر له الشر يقال: "**عم يتحمَّضلو**"، ووصف الشخص عندما يقول كلاماً غير مترابط وغير منطقي: "**عم يقطش ويلحش متل بيَّاع العوَّامة**" (العوَّامة هي أكلة دمشقية حلوة تتألف من الطحين المختلط بالماء والمقلي مع القطر)، وأما من يثقل بالكلام غير المهذب فيقال: "**عم يحكي كبَّادي نارنجي**".

وانتقد المثل الشعبي الشخص الذي يتنصل من أهله وأصحابه فقيل: "**يلِّي ببيعك بالفول بيعو بالقشور**"، لكن المتمسك بأهله وبلده يقول: "**زيوان البلد ولا قمح الجلب**".

ووصف المتسرع بكلامه ورأيه: "**عم يخطف الكبَّاية من راس الماعون**" (الكبّة هي أكلة شامية يدخل فيها اللحم والبرغل)، ووصف الخائن القريب بـ "**دود الخلّ منُّو وفيه**"، وفي حال استطاع شخص بحصافته التخلص من مشكلة عويصة يقال: "**نفد متل الشعرة من العجين**".

وحين يحاول شخص ما المصالحة بين طرفين قريبين كان يقال: "**يافايت بين البصلة وقشرتها ما بنوبك غير نتنتها**".

لم تكتف الأمثال باستخدام الطعام في الحالات المختلفة، بل وصفت الأشخاص باستخدام الطعام، فقيل عن الشاب الفقير: "**دبساتو مراق**"، ولمن لا يفي بوعوده: "**عالوعد يا كمون**"، وللخائن: "**خاين يا طرخون خيرك لغيرك**" (لأنه عرف عن الطرخون أنك تزرعه في مكان فينبت في مكان آخر)، وللساذج: "**القط بياكل عشاه**"، وللشخص المحبوب: "**بينشرب مع المي العكرة**"، وأما من أساء فيقال فيه: "**شو بدي أتذكَّرك يا سفرجل كل عضَّة بغصَّة**"، ومن لم يكن على مستوى المسؤولية: "**مدحنا القط قام طبَّس بالعجين**".

ودخل الطعام في وصف الشراء والبيع وأنواع البضاعة، فقيل مثلاً: "**يامسترخص اللحمة عند المرقة تندم**" ، وانتقد المثل استغلال الصديق لصديقه بالقول: "**إذا كان صاحبك عسل لا تلحسو كلو**"، ومن يتحدى شخصاً آخر يقول: "**أحمض ما عندك طبخو**".

وفي حال كان المسبب في الأمر والسبب واحد يقال: "**من دهنو سقّيلو**"، وفي حال الجشع قيل: "**استكبرها ولو كانت مرَّة**"، أي مهما يكن ما يقدم إليك فخذ أكبر الموجود، ولو كان الأسوأ.

وأما المعاناة والفقر فقد ذكرا أيضاً باستخدام أنواع الطعام، فقيل مثلاً: "**تعب وشقا والعشا خبيز**"، أو: "**شو حاجك للمرّ قال الأمرّ**"، ووصف الأطفال في حال القلة: "**الجيل الأفجع بياكل ما بيشبع**"، وللتأفف من وضع ما أو مشكلة ما أو شخص ما يقال: "**قلبي من الحندوب مندوب ومن الحامض لا وي** ".

ودخل الوصف في النوم أيضاً؛ فالنوم الخفيف في بداية الليل والذي يقوي على السهر يقال عنه: "**قشّيت الزفرة**" (والزفرة هي الزبد الذي يظهر في وعاء سلق اللحم). وقد شجع المثل على التمسك بالأصول أيضاً بالاستعانة بالطعام فقيل: "**كول فول وارجاع للأصول**".

كما نرى فإن ثقافة الطعام كانت منتشرة بشكل واسع في المجتمع الشامي، وما سبق يظهر مدى استخدامها في معظم مناحي الحياة الاجتماعية أو الحالات الشخصية المختلفة للإنسان.

الكرم والبخل وإكرام الضيف

لقد اشتهر أهل دمشق بالكرم وإكرام الضيف بسخاء، وانعكس ذلك على الأمثال الشعبية، فيقال مثلاً: "**بيت الديق بيسع ألف صديق**" (الديق أي الضيق).

ولم يقتصر الكرم على المقتدرين مادياً من أهل الشام، بل كان الجميع يتمتع بهذه الصفات، فجاءت بعض الأمثال تصف أحوال غير المقتدرين عندما يجتهدون في إكرام الضيف فقيل: " **ورجي عذرك ولا تورجي بخلك**"، أو قيل: "**لاجود إلا بالموجود**" ، أو قيل: "**الفضلة للفضيل**"، أو قيل للضيف: "**صدر البيت إلك والعتبة إلنا**"، وقيل أيضاً: "**الضيف بيحضر وبيحضر واجبو معو**".

وكان أهل الشام على استعداد دائم لاستقبال الضيف بجعل بيوتهم في حالة جهوزية في أي وقت، قيل: " **غسِّل وشَّك ما بتعرف مين ببوسو ونظِّف بيتك ما بتعرف مين بدوسو**"، وقيل أيضاً: " **يا فْتَاح بيتك وافتخر، يا سكِّر بابك وانستر**".

لقد كان المضيفون يحبون إكرام الضيف سواء في الطعام أو الجلوس أو الشراب، ويلحون في سكب المزيد والبقاء وقتاً أطول، وقد وصف المثل الشعبي ذلك فقال: "**الضيف الشرشوح بياكل وبيروح والضيف المنيح بياكل وبيستريح**".

لكن عرف أيضاً الحرص في أهل الشام لكونهم تجاراً، وقد فهم الحرص على أنه بخل أحياناً فظُلموا في هذا الوصف. لقد عرف عنهم الحفاظ على نعمة الطعام والشراب، ومسح الصحون أثناء الأكل، وعدم إلقاء بواقي الطعام في

القمامة، حتى إنه كان يقال إن بقايا الطعام أو "**الدهادير**" هي نقد ومهر (مقدَّم الصَّداق) الحور العين؛ لتشجيع العائلة على عدم إلقاء أي شيء من الطعام.

كذلك كان التجار يتاجرون ببعض المال ويبقون بعضه من باب الحرص، وربما كل هذه التصرفات وغيرها جعلت البعض يصفهم بالبخل، فأطلقت عليهم الأمثال تصف ذلك بغير وجه حق، فقيل مثلاً أن الشامي يسأل المسافر: "**متى جئت**" ثم يتبعه بسؤال "**متى ستسافر**"، أو يقول له: "**بدك تنام عنا ولَّا بالأوتيل**"، وهنا لابد من الإشارة إلى الفروق الكبيرة بين الحضر وبين المناطق النائية؛ فربما يستضيف ساكن المناطق النائية أو العربي ساكن المناطق الصحراوية الضيف ثلاثة أيام كما هو معروف، لكن في الحضر ربما كان هذا متعسراً؛ فالمعيشة في الحضر أو المدن هي أكثر كلفة، وربما هذا سبب عدم وجود مثل هذه العادة عند أهل الشام، أو أهل المدن بشكل عام، والمقصود هنا عادة استضافة الضيف ثلاثة أيام، حيث قيل في المثل الشعبي: " **الضيف أوَّل يوم قمر مدوَّر وتاني يوم رغيف مقمَّر وتالت يوم قرد مصوَّر**"، ولهذا السبب نجد بين الأمثال الشعبية بعض الأقوال التي تصف البخل والبخيل فقيل: " **إذا أفلس الجندي بدوِّر على دفاترو العتق**"، وقيل أيضاً: " **يا ستي حسنة شفناك فوق وشفناك تحت**".

العواطف في الأمثال

العواطف البشرية هي موجات إنسانية تنبع من القلب ويترجمها اللسان. لقد عكست الأمثال على نحو صارخ تلك العواطف، ومثلتها في بعض الأحيان بأجمل معانيها، وبالغت في مواقع أخرى، وتجنت وعدلت، وطغت وجارت وأنصفت.

لقد كان من العبارات ما يتودد به للآخر فيقرب البعيد ويجبر المكسور ويلأم المثلوم، فمثلاً عندما يطلُّ أحدهم يقال: "**ابن الحلال عند ذكرو ببان**"، أو يقال عند ذكر أحدهم بالغيب: "**فلان ملايكتو هافّة**"، هذا النوع من الكلام يقرب الناس بعضهم من بعض، ويصبح حسن النيات في الكلام قرباناً للعلاقات الحسنة والصحية بين الأشخاص.

ففي الحب مثلاً قيل: " **الحب أعمى**"، وفي حب شخص ما قيل: "**قلبي لهفلو**"، وقيل: "**لا تشوفوها بعيونكم شوفوها بعيوني**" ، وفي بعض الأحيان يقال للذي يقع في الحب من نظرة: "**طابس لقراقيط أدانو**".

وقيل في الحبيب: "**حبيبي رآني ورأيتو شو بدِّي بحيطان بيتو**"، وقيل أيضاً: "**القط بحب خنَّاقو**".

ووصف المثل الشعبي قوة الحب وفضلها على الصداقة حين قال: "**مين شاف حبابو نسي صحابو**".

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الحب له وجه واحد فقط، وهو ذلك الحب الذي يجمع بين المرأة والرجل. فهناك حب الأم لابنها، قيل: "**قلبي على ولدي انفطر وقلب ولدي عليي حجر**"، وحب الأخت لأخيها، قيل: " **أخو مراتو وأنا بحلف بحياتو**"، وحب الإنسان لوطنه، قيل: " **الحجر بأرضو قنطار دهب**"،

وقمة القمم في حب العبد لربه، كل أولئك وجوه مختلفة وأحوال يتقلب فيها القلب ويحيا بها ويرق لها ويستمد حياته منها.

وظهرت عواطف أخرى في الأمثال، ففي العتاب على فعل مشين يقال: "**عاتبتو وجَّبتو لو يستحي ما فعل**"، أو قيل: "**العتب صابونة القلوب**".

كذلك فإن كلام العيون ورد فيه ماورد في الأمثال فقيل: "**العين مغرفة الكلام**"، فالنظرة تشجع على الكلام، وقيل أيضاً: "**لا قيني ولا تطعميني**" (لاقيني هنا تعني الطلاقة في الوجه عند لقاء الضيف)، وهنا جاءت العين في مواضع أخرى وبمعان أخرى في المثل الشعبي، فقد ذكرت العين في التواضع فقيل: "**العين ما بتعلى عن الحاجب**"، وذكرت أيضاً في رفض الحزن والمصائب، قيل: "**لا عين تدمع ولا قلب يحزن**"؛ ولطالما كانت العيون في لغة الشعراء لها ما لها قال الشاعر:

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا ونحن سكوت والهوى يتكلم

وكان للكره أو للنفور من الآخر حظ وافر في الأمثال الشعبية، فوصف الشخص غير المرغوب به "**متل السَّفْق على تمّ القلب**"، أو قيل عنه: "**قيمته هللة وقشرة بصلة**"، فإن حضر في مجلس ما قيل: "**اذكر الدِّيب وحضِّر القضيب**".

وتفننت الأمثال في وصف النفور بين شخصين، فقيل: "**مو رمَّانة لكن قلوب مليانة**"، أو كان يمرر الغمز واللمز أثناء الضحك والمزاح، فقيل: "**بين الضحك والأفراح بتشتفي الأرواح**"، فمن المعروف أن تمرير ملاحظات عن شخص ما أثناء الكلام أو أثناء المزاح ومن دون أن يشعر ميزت أهل الشام.

الأمثال في الدين والإيمانيات

على اختلاف المجتمعات والثقافات يعد الإيمان جزءاً لا يتجزأ من تركيبتها الفكرية والنفسية مهما يكن شكل هذا الإيمان، فقد جبل الإنسان على الإحساس بتلك القوة التي تفوق قوته والتي تحيط بالكون على عظمه وعظمته.

وكذلك يعرف الإيمان بأنه ذلك الملجأ الآمن الذي يلوذ به الأفراد عندما تتفوق عليهم ظروف الحياة ويصبحون في موقع الضعيف، لكنه أيضاً في الوقت نفسه يعرف بأنه التفسير الوحيد لبعض الظواهر التي لا تجد لها في المنطق والعقل مبررات مقنعة، وأما التعريف الأعم فهو الإيمان المرتبط بالشرائع السماوية بحيث إن الله هو تلك القوة العليا القادرة، وهو النوع الشائع في مجتمعاتنا الشرقية الذي يرتبط في التركيب النفسي والروحي والإرادي واللاإرادي للأفراد المكونين للمجتمع، فهو الذي يعطي لحياة هؤلاء طعماً، وهو الذي يقدم لهم ما يمكن أن يتطلعوا إليه في المدى البعيد لتحصيله، فهو المعنى الحقيقي لحياة هؤلاء، وفيه يجدون العدل والقسط والأمل في ظل الجور والظلم الذي رزحوا تحته لمئات السنين، ولقد انعكس هذا الإيمان في التراث الكلامي والأمثال الشعبية وفي كل تفصيلة من تفاصيل الحياة.

لقد ظهر الارتباط بالدين في كثير من الكلام المتداول، فمثلاً المحافظة على الصلوات كان لها نصيب من الكلام الشعبي، قيل: "**صلِّي الفرض ونام بالعرض**"، كذلك في الخوف من فوات وقت المغرب حيث إن وقته قصير نوعاً ما قيل: "**المغرب غريب**"، أي يفضل أن تصلى الصلاة على وقتها وإلا فسيمضي الوقت وتذهب الصلاة.

كذلك لم يغب عن الناس أن تكون لهم عين على الآخرة وهم يعيشون في دنياهم، فقيل: "**الإنسان لا يقول يا أوَّلتي لكن يقول يا آخرتي**"، كذلك

قيل: "**على الآخرة يا فاخرة**"، في تدليل على أن الحياة الأخرى كانت حاضرة في الذهن الشعبي على أنها دار القضاء والعدل والجزاء على الأعمال، أو عندما يشيخ الإنسان ويخشى من أرذل العمر كان الدعاء: "**يارب لا تقّل فيني أرض ولا تكرّه فيني عبد**" (تقّل أي تثقل، وهي بمعنى أن يصبح الكبير بالسن مقعداً وثقيلاً على الآخرين).

وقيل أيضاً: "**اصفيها وارقص فيها**"، أي عندما تكون النية صافية تجاه الآخر فكل شيء آخر يهون.

وفي الحياة اليومية العادية وتفاصيلها الدقيقة كان التوكل حاضراً في ثناياها، فلم يخش الإنسان يوماً على قوته أو قوت أولاده؛ ففي إيمانه أن الله سيرزقه كما يرزق الطير قيل: "**كبِّر كبِّر الله بدبِّر**"، وقيل أيضاً: "**منَّا التفكير وعلى الله التدبير**"، وقيل أيضاً: "**اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب**"، وقيل أيضاً: "**حط عينك بعين الله**".

وكان الإيمان وازعاً حقيقياً على عمل الخير والتكافل الاجتماعي الذي ساد المجتمع الشامي المعروف بإغاثة الملهوف، وجبر عثرة المعسور، وبستر الفقراء وقضاء حوائجهم من خلال مجلس الحارة الذي كان يتداول شؤون المجتمع ويحاول حل مشاكله وسد احتياجاته.

وعلى المستوى الشخصي والفردي كان الإيمان وازعاً دائماً على فعل الحسن من الأعمال، قيل: "**إذا بدك تعمل خير اسقي العرق الأخضر وطعمي الطير**"، أو قيل: "**عميل خير وزت بالبحر**" (زت أي ارم في البحر).

وفي النوائب، كالموت والمرض والكوارث، كان الإيمان هو الملاذ الآمن للتخفيف من وقع الخطوب، قيل: "**إذا جاء القدر عمي البصر**"، ويقال: "**الله يجيرنا من ساعة الغفلة**"، وقيل: "**يالطيف تجعل للبلا تصريف**" (البلا هو البلاء)، أو: "**الله يجيرنا من شيء أعظم**".

وقيل أيضاً تدليلاً على التسليم الكامل لقدرة الله: "**يلِّي إلو عمر ما بتهينو شدة**".

وفي التسليم بالقضاء والقدر: "**يا ماشي على رجليك ما بتعرف شو مقدَّر عليك**".

وفي عدم إظهار الشماتة بالآخر قيل: "**ماحدا على راسو خيمة**".

لقد كان الإيمان - وما زال - في مجتمعنا اللحمة التي تشد النسيج الاجتماعي بعضه إلى بعض بتجلياته المختلفة، سواء في التكافل بين أفراده أم بالتسامح في التعامل، ولقد أثبت فعاليته ومجاراته لأقصى ما أعطانا إياه الغرب، وهو المجتمع المدني الذي يحاول القيام بهذه المهمة حالياً من خلال الجمعيات الأهلية التي باتت اليوم حاجةً لكل مجتمع، لكن حتى عندما لم تكن موجودة كان هناك ما يقوم مقامها في مجتمعنا؛ يذود عن الضعيف ويعطي الفقير ويقضي حاجة المسافر ويفصل بين المتخاصمين.

openkandil.com

كلمة أخيرة

لم يكن الهدف من هذا الكتاب التنكر لإرث شعبي، أو التشويش على ثقافتنا أهل دمشق المعروفة بالشامية، فنحن نؤمن تماماً بأن الإرث الشعبي والتواتر الشفوي للتجربة الإنسانية، المتمثلة بالأمثال الشعبية والمأثورات الكلامية، جزء لا يتجزأ من هوية أي مجتمع، ولا يمكن بأي حال من الأحوال التخلي عنها أو إسقاطها من المخزون الفكري للإنسان؛ فهي كما تنتقل عن طريق اللسان فإنها أيضاً تسكن في الوعي والقلب والعقل والوجدان.

هذا تماماً هو المحرض الأساس على الوقفة النقدية الذاتية التي قمنا بها من خلال هذا الكتاب، والتي بنيناها على المتغايرات الحالية، وتوافر الإمكانيات النفسية والعقلية والتكنولوجية التي تجعلنا قادرين على تقييم هذا التراث على الأقل على المستوى الفردي.

قد تكون هذه التجربة فردية لكن عندما سمحنا للمخزون الفكري بالخروج دون حاجز أو بواب كانت المفاجأة الكبرى تكمن في هذا الكم الهائل الهاجع في ثنايا اللاوعي والذي كان ينتظر اللحظة المناسبة كي ينتشي ويخرج، وربما أي محاولات للآخرين قد تفضي إلى النتائج ذاتها، والأغرب أننا حتى بعد انتهاء هذا الكتاب ماتزال الأمثال والمأثورات تتدفق بشكل يومي، وهذا يعني أن القضية متجذرة عميقاً وتحتاج إلى وقفة جدية.

قد يرى البعض مبالغة وتهويلاً في الربط بين الأمثال والتراث الكلامي وبين تأثير ذلك في الأفعال والسلوكات، لكننا، أفراداً، لا يخفى علينا أننا في مفترقات الطرق وفي الأوقات الصعبة وحين يجد الجد ونكون وجهاً لوجه مع اتخاذ أي قرار فإن هذا المخزون يؤثر في ذلك القرار وإن بطريق غير مباشر، كذلك فإن سلوكاتنا اليومية وزهدنا أو ماديتنا، وقدرتنا على الانخراط في العمل

الجماعي أو فرديتنا، ونظرتنا إلى أهمية الأشياء وترتيب الأولويات، كل أولئك يتأثر بشكل غير مباشر وإن من طرف خفي بكل هذا المخزون الذي نحمله.

من الأمور التي لاحظناها في المجتمع الغربي ووجدناها تصب في خانة الاهتمام بوعي أي جيل سيأتي، أنهم يهتمون بما يقوله الكبار للصغار؛ فأنت معلماً أو طبيباً أو أكاديمياً، أو حتى أباً وأماً، محظر عليك تماماً أن تقول كلاماً يسد الأفق لدى الطفل، بل تعاقب على فعلك هذا، فإن قال لك الطفل مثلاً أريد أن أصعد إلى المريخ عندما أكبر، فأنت محظور عليك أن تسفه رأي هذا الطفل، بل لا بد أن تشجعه وتفتح له الآفاق وكأن فكرته مهما كانت خيالية فهي قابلة للتنفيذ، هذا النوع من الثقافة هو الذي نفتقده، وهو الذي نشجع عليه في هذا الكتاب، ولو نظر أي منا حوله لعائلته والعوائل التي تجاوره أو تقربه لوجد أن تسفيه الرأي، وتثبيط العزيمة، وقص الجوانح، والتيئيس من المستقبل، واصطياد الطاقات حتى لا ترى النور، وقتل أي فكرة في مهدها، هو المتبع في معظم الحالات، وسيرى بأن الألسن ترطن بوعي وغير وعي بكل مثل شعبي وقول مأثور يدعم هذا الاتجاه، ولهذا كانت دعوتنا في هذا الكتاب إلى غربلة ما نقول وما نتفوه به.

ومما يزيد الأمر حسرة أن وسائل الإعلام المرئي والمسموع باتت تتجه الاتجاه الخاطئ ذاته، فهي في معرض إحيائها للتراث الشعبي الشامي باتت تقدم المسلسل تلو المسلسل دون وقفة جدية مع ما يقدم من خلالها.

نحن لسنا ضد العودة إلى القيم الجميلة الراقية التي تميز بها مجتمعنا؛ من غيرة على الأرض والعرض، وترابط بين أفراد العائلة، ورقي أخلاقي، وتكافل اجتماعي، وروح جماعية تخدم المجتمع قبل أن تخدم الفرد، وهو ما يفتقده المجتمع الغربي، لكننا نقول بأن معظم هذه المسلسلات أيضاً قامت بتمرير الكثير من السلبيات التي حللناها في هذا الكتاب، وجنحت إلى لغة في كثير من الأحيان تنصَّل منها الشاميون أنفسهم.

إن ما ندعو إليه هو وقفة جادة مسؤولة، حيث إن الإعلام المرئي لم يعد فقط مصدر ترفيه، وإنما أصبح مصدراً للمعلومة، ومرجعاً ثقافياً، ومنبراً تعليمياً، ما يضع القائمين عليه بكل مستوياتهم وجهاً لوجه أمام مسؤولية تشكيل وعي الجيل القادم، فهم رعاة هذا المرفق، وبذلك فهم من يحمل العبء، وهم في الوقت ذاته من يحمل الوزر في حال أساؤوا إلى هذا الجيل وإلى تكوينه الثقافي والفكري والحضاري.

إننا نحن الشعوب - أريد لنا أن نكون حيث نحن، وبعيداً عن نظرية المؤامرة كان هناك توجه عام للدول الأقوى في إبقائنا في هذه المساحة الضيقة جداً من التفاعلات العالمية على الساحة الكونية.

نعم لقد امتلك الغرب المدنية لكن لانقول أنه امتلك الحضارة؛ لأننا رواد الحضارة، ونحن الحضاريون منذ آلاف السنين. لقد حرمنا من غير وجه حق من أدوات المعرفة، ومنطقتنا تعرف بالشعوب الذكية، ولا أدل على ذلك من أن أحدنا إذا خرج إلى المجتمعات الغربية وامتلك الأدوات، ترفَّع وقاد واعتلى أرفع المناصب، لقد كانت - ومازالت - منطقتنا تحت تسلط الدول الأقوى، والسياق التاريخي يظهر القصد والعمد في إضعاف شعوبنا وحرمانها من الخيارات، ووضع اليد على كنوزهم.

ولكي نخرج من التعميم وننصف هنا، نقول: إن الغرب مع كل ما سبق، عرف كيف يتعامل مع كنوز حضارتنا فبنى عليها، وثار على واقعه المتردي في القرون الوسطى، ورقي بأفراده ودفعهم نحو الأفضل.

ثم نجد أن عقدة النقص تمكنت منا وأصبحنا نشعر كما أريد لنا من الدول الأقوى أننا في ذيول الحضارة، وهذا المفهوم خاطئ شكلاً ومضموناً، فالحضارات أشرقت من هذه البقعة الجغرافية، والشرائع السماوية نزلت على سكان هذه البلاد، وأسس العلوم التي بنى عليها الغرب استلبت من تاريخنا دون إذن منا، بل نسب الغرب معظمها إليه في تشويه مقصود للتاريخ.

obeikandl.com

يقول الشاعر محمود غنيم:

يا شرق يا مهد الشرائع رحمة لك ما لأهلك فيك كالأضياف؟
يا شرق أنت لكل شمس مطلع مابال أفقك حالك الأسداف؟
يا شرق أنت لكل خير مصدر ياشرق فيك مفاخر الأسلاف
بدأت من الشرق الحضارة سيرها أفما لرحلتها من استئناف؟

من الجميل أن نرى الجيل الجديد معتداً بجذوره، واثقاً من قراراته، مدركاً تمام الإدراك أن حاله المتردي ليس بسببه هو أو لضعف منه أو لنقص فيه أو لانعدام في قدرته على الإبداع، فهذا تماماً مايريدنا الغرب أن نشعر به، بل ندعو إلى جيل يعرف تماماً ما يريد، ولا يعيش في جلد الذات كما عاش سلفه، وأولى الخطوات نحو هذا المستقبل الجميل في غربلة موروثنا الكلامي والتمسك بالجيد منه والحفاظ عليه.

لا بد من ردم المسافة التي عمل الغرب على اتساعها بيننا وبينه، وهذا يتطلب النهوض من هذا السبات المقيت، ولا نبالغ إذا قلنا أن تمحيص موروثنا الكلامي هو جزء مهم من هذه النهضة، وحجر أساس، فهو يشكل - شئنا أم أبينا - وعي الأجيال القادمة التي يعول عليها.

obeikandi.com